عبد العزيز بن عبدالله — لماذا التعريب ؟

حضرات السادة :

احييكم باسم مكتب تنسيق التعريب ، المكتب الذي شغل نفسه والعالم العربي طوال عشر سنوات في اعداد معاجم علمية بلغات ثلاث هي الفرنسية والانكليزية والعربية ، ليقدم الى الجيل الناشيء ما يعينه على متابعة العلوم باللغة العربية ثم الرجوع الى اللغات الاخرى ان شاء لملاحقة التطور العلمي بلغته الاصيلة .

وقد يتساءل المتشككون عن الدواعي لهذا العمل المضني فيقولون: لماذا التعريب ؟ لماذا لا نأخذ العلم من منبعه بلغته الاولى التي وضع فيها ؟ لماذا نتعب انفسنا بنقله الى اللغة العربية ثم نعود فنحمل الطالب على العودة الى تلك اللغة التي نقل عنها ليتابع درسه وبحثه ؟

لقد وجدت ان التساؤل الاول (لماذا التعريب ؟) مندمج تمام الاندماج في التساؤل الاخر (اللغة العربية والتعريب) ولذلك آثرت عرضهما معا في اطار واحد . ولنعد الى التساؤل الاول لنجد جوابه لدى المربين الذين يضطلعون بتثقيف الجيل الجديد ، ولنصعد معهم الدرجة الاولى فهم أجدر من يلجأ اليه في هذا الموضوع التعليمي ـ التربوي في آن واحد . انهم يؤكدون ان التعليم بلغة اجنبية مهما كان مسهلا ومبسطا لا بد أن يأخذ من التلميذ جهدين معا ، الجهد الاول في محاولة تفهم معاني الالفاظ والمصطلحات الجديدة والتي قد تتداخل احيانا فتتعقد عليه مفاهيمها ويضيع بذلك وقتا مهما كان قصيرا فهو وقت مقتول على أي حال . اما الجهد الثاني الذي سيبذله التلميذ فهو في حفظ هذه المفاهيم واستذكارها لتوسيع آفاق ثقافته فيها .. بينما لو كانت هذه الدروس تلقى عليه بلغته التي يتحدث بها ويفهمها لاقتصد احد الجهدين وصب كل قوته على الاحاطة بالموضوع ، فرسخ في ذهنه وتملك من قلبه فلن ينساه من بعد حتى ولو أهمله الى زمن طويل .

وجواب المربين الاختصاصيين هذا فيه شيء كثير جدا من الصحة ولا يقدح فيه قول المنكرين القائلين بانه انما يتعلم باللغة الفصحى، وهذه اللغة نفسها بعيدة عنه بعد اللغة الاجنبية ، فهو في كلتا الحالين مضطر الى بذل جهدين لا جهد واحد ، والواقع ان هذا التشكك من عمل اعداء العروبة الذين يريدون اماتة لغة القرآن الكريم واحياء اللغات العامية للتفريق ما بين البلاد العربية وجعلها على غرار اللغات اللاتينية كالفرنسية والطليانية والاسبانية والبرتغالية .

وهل يرتاح المستعمرون من العرب الا اذا فرقوهم هذا التفريق؟

اني لا ادعي هذه الدعوة ايها السادة بسبب عاطفي ، ولو ان عاطفة العروبة والاسلام تسيل مع دمائنا وتنساب في عروقنا وتغذي مطامحنا وامالنا باستمرار . كلا فاذا كان للعاطفة من نصيب في هذه الدعوى فان فيها كثيرا من التعقل والهدوء . فلقد اثبت لنا التاريخ القريب والبعيد ان عمل المستعمرين والمبشرين وتخريبهم لا يتناول الارض والبناء والمزارع والمعامل والمدن ،بل يتغلغل الى ابعد من ذلك بكثير ، انه يحاول التسلل الى ما وراء المادة ويصيب العقيدة في اعماقها ، ولقد ادرك هؤلاء ان العرب ما داموا متمسكين بقرآنهم متعلقين بلغة دينهم فانه لا سبيل الى السيطرة عليهم وامانتهم . ولذلك فانهم لا يكفون عن مهاجمة هذه اللغة هجوما مركزا مدروسا ، فتارة يدعون ان قواعدها صعبة لا يمكن حفظها مع ان قواعد اي لغة ليس اسهل منها بكثير بل ان قواعد اللغة الالمانية والروسية من الصعوبة بحيث لا يمكن ادراكها الا بجهد طويل وزمن اطول ولا اتحدث عن قواعد الصينية واليابانية وما شابهها لئلا يقال : هذا تعجيز .

وتارة ينشرون اقوال بعض المغرضين على اوسع نطاق كقول احد المستشرقين بعد ان تعلم اللغة العربية : لو طلب الي ان اقطع القارة الافريقية بطولها من الجنوب الى الشمال مشيا على قدمي لمشيتها وما أقدمت على تعلم اللغة العربية ثانية فانها اصعب من ذلك بكثير . هل ترون ايها السادة في هذا القول شيئا من منطق؟ الا ترونه تحاملا مذموما ؟ الا تلاحظون بان الذي ينشر مثل هذا القول لا يمكن الا ان يكون حاقدا كريها ؟

وتارة يشجعون على نشر العامية بتأليف الكتب فيها كما يحدث في بعض البلاد العربية ، وتارة يهاجمون الحرف العربي ويدعون الى الكتابة بالحروف اللاتينية . ماذا اعدد ؟ ان مثل هذه الدسائس لا حصر لها . (ولقد ثبت ان التلميذ العربي الصغير يستطيع ان يفهم لغة القرآن الكريم ويتعلم بها بسهولة كبيرة لا يمكن ان تبلغها اللغة الاجنبية . فدعوى المدعين بأن التعليم باللغة الفصحى لا يقل عن التعليم بلغة اجنبية باطل من اساسه ولا أظنني بحاجة الى البرهان عليه بأكثر مما قدمت .

هذا رأي المربين المنصفين . اما ما يتعلق بالناحية القومية فانه لا مجال لشك مطلقا في قيمه التعليم باللغة الوطنية العربية لغة القرآن والدين ، لغة التاريخ العربي كله . اللغة التي احتوت امجادنا والامنا . اللغة التي رافقتنا مع الزمن في احلك لياليه واكثر ايامه اشراقا ووضوحا ، اللغة التي ارتبطت بمطامحنا وامجادنا وامالنا ..

نعم هذه اللغة الحبيبة التي عايشناها وعايشتنا وطالت صحبتنا اياها قرونا طويلة جدا لا نعرف لها اولا ولا ندرك لها نهاية ، كيف يريدون لنا ان نتركها ونستبدل غيرها بها ؟ أيظنونها من بعض الملابس تلقى اذا رثت وتهمل اذا قدمت ؟

واذا كانت الامم الجديدة قد سبقتنا في مضمار الحضارة المعاصرة فهل يعني هذا ان نستسلم وننام ، ام يكن للفتنا هذه امجادها العلمية في القرون الوسطى ؟ فلماذا لا يكون لها مثل هذه المشاركة في الحضارة الحديثة ؟ ولقد اثبت لنا التجارب امكان ذلك حين سبقت بعض البلاد فعربت ونجحت نجاحا منقطع النظير ، واصبح لنا مؤلفات علمية ذات قيمة محترمة جدا وما زلنا في اول الطريق ، فكيف لو سرنا الى المدى الفسيح قدما متعاونين ؟

ونحن في مكتب تنسيق التعريب نواصل الجهد لتغذية المسيرة العلمية بمعاجم تساعد الطلاب والمدرسين واستطعنا خلال السنوات العشر التي مضت ان ننجز معاجم على مستوى المدارس الثانوية هي : الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والرياضيات والجيولوجيا واجتمع العلماء العرب في العام الماضي بالجزائر وتدارسوها واقروها بعد ان اجروا فيها بعض الاصلاح وهي الآن تحت الطبع وستوزع على العالم العربي كله خلال بضعة شهور .

ووضعنا معاجم اخرى سنعرضها في مؤتمر قادم ان شاء الله هي: معجم البترول ، معجم الفقه والقانون ، معجم الدم والعظام ، معجم الاقتصاد ، معجم الادارة ، الى جانب معاجم معاني كثيرة صغيرة الحجم ولكنها كبيرة الفائدة اذا عددها على العشرين وما زلنا في الطريق نعمل ونكد ونجهد مستعينين بالله تعالى متكلين عليه مندفعين بتشجيع اخواننا العرب ولا نلقي القلم حتى يأذن الله .

وكلنا ايمان بأن هذه الامة النبيلة الاصل والفرع ، العظيمة في تاريخها الحضاري ودينها القويم ، الطامحة الى مستقبل مشرق ، ستصل باذنه تعالى الى مرامها ، وستشارك في المسيرة الحضارية بلغة القرآن كما شاركت فيها ابان القرون الوسطى ، واذا كان فجر العرب قد انبثق فقد اضاءت له شمس الحرية الان طريقه ولن يرجع القهقرى ما دام فيه من المخلصين امثالكم .

عبدالعزيز بن عبدالله

مدير مكتب تنسيق التعريب بالرباط